"الخندق العميق" ومدى تعبيرها عن تمرد الجيل

بقلم محيي الدين صبحي

كان لا بد من ظهور كتب تعرض حياة الجيل ، في هذه البقعة التي تتوسط العالم العربي ، والتي تتطور حياتها بسرعة واستمرار بفعل شدة احتكاكها بالغرب وتأثرها به . وبفضل انتشار التعليم وارتفاع نسبة المتعلمين بين ابنائها حتى انهم ليفوقون بقية الاقطار العربية ثقافة ووعيا لمشكلاتهم الفردية والقومية .

لقد صور طه حسين في « الايام » واحمد امين في «حياتي» واخيرا نجيب محفوظ في سلسلة « قصر الشوق » ـ لقد صور كل هؤلاء البيئة المصرية بتقاليدها وعاداتها ومجرى حياتها اليومية وكيفية تطورها البطيء من خلال التطور الفردي الذي عني بعرضه الكاتبان الاولان حين ترجما لحياتهما ، وكان تصوير نجيب محفوظ اشمل وادق واكثر وعيا بفعل اتضاح عناصر الحياة القديمة لبعد مناظرها وامكان رؤيتها في كل الجوانب وبدون انفعال . اما في سورية ولبنان فان الادب لم يلتفت ابدا الى الوراء ، ولن تجد في كتابات الادباء اي تصوير لبيئة القرن التاسع عشر او بيئة القرن العشرين ! ذلك ان وعي المستقبل والتمرد على الحاضر والنضال من اجل التحرر الوطني .. امور تستغرق ادباءنا وتشغلهم عن التفكير بالماضي ، ومما زاد هذا التيار شدة ، سيطرة الادباء الواقعيين في سوريا خاصة ـ على السوق الادبية واهمالهم لكل القيم الفنية مقابل نشر المذهب الماركسي. وفيما عدا السيدة الفة الادلبي لم يلتفت واحد من الكتاب الى الحياة الماضية بل تركز نتاج الادباء الشبان في عرض ازمة القلق والتمزق الفكريين وتسجيل ثورة الجيل على الخلقية القديمة . وقد خضع لهذه القاعدة الدكتور سهيل ادريس في بداية حياته الادبية ، فقدم لنا في « الحي اللاتيني » صورة عن قلق الجيل وتقلباته بين شتى انماط الحياة ، كماانه اكتفى في « الدمع المر » بالحديث عن الحياة الحاضرة . ولعل رواية « الخندق الغميق » اول رواية تحاول ان تتعرض بصورة مباشرة لبيئة الطبقة المتوسطة التي عاشت قبل الحرب الثانية وتعرض كيف نسف ابناء هذه الطبقة مفاهيمها التي نشئوا عليها حين اتصلوا بالعالم الخارجي وادركوا انه يحتاج الى خلقية ومثل جديدة .

تبدا الرواية بتصوير الجو الديني الذي نشا فيه « سامي » بطل الرواية وكيف كان ابوه يقيم حفلات « الذكر» ويدفع ابنه اليافع الى حفظ القرآن والاحاديث حتى يفلح التوجيه في جعله يندفع الى ابيه بلهفة ويقول له : « ابي .. ارجوك .. ارجوك يا ابي .. اني اريد ان اصبح شيخا » ص ١٨ . ثم يدخل مدرسة دينية داخلية تفرض على طلابها اداء الصلوات الخمس وحياة فيها كثير من الصرامة والتقشف ، وما يلبثون ان يلبسوا الزي الديني فيعتمر سامي بالعمة ويرتدي الجبة ، ومنذ تلك البرهةيبدا صدامه مع الواقعوروح العصر التيلا ترضى للانسان كل هذه القيود الوقورة ! ففي اليوم الاول من لبسها يتساقط المطر وهو في الطريق « وحين اقبل الترام هم بالعدو خلفه ليدركه وهو سائر ، على عادته ، غير انه شعر بثقل الجبة على كتفيه ، والعمة على رأسه ، وذكر ان الرصانة تقتضيه الا يقفز الى الترام قفزا » ص ٣١. وهو في زيه هذا ، يستدر العطف حينا والسخرية احيانا بصغر سنه ، حتى ان ذقنه « لم تطلع بعد » ص ٣٦ . وانقطع عن العبث مع ابناء حارته « لقد انتصب بينهم وبينه حاجز صفيق . لقد اصبح ينتمي الى غير عالمهم ، عالم الاحداث العابث اللاهي » ص ٣٧ . وبذلك حرم من متعات الطفولة وانتقل الى عالم جدي جامد « فكثيرا ما كانت تغيب عنهم الحكمة من بعض احكام الدين ، فاذا توجهوا في ذلك الى مدرس الفقه ، ادلى لهم بما لا يقنعهم غالبا » ص ٤٣ فيكتفون بالحفظ من دون فهم ، وكان درس الادب هو الدرس المحبب للفتى ، وكان جو المدرسة الداخلية قذرا ففي الليل «كان يوشك ان يغمض عينيه حين راى في الظلام شبح رفيق له يدخل غرفتهم، فيقترب من سرير رفيق اخر ، ويبدآن يتهامسان .. ولم يلبث طويلا حتى سمع همسهسة قبلات وتنهدات .. » ص ٥ وكان التدخين منتشرا ص ٥٠ والعادة السرية شائعة ص ٦٠ . وكانت كل الاشياء المحرمة تتسلل الى هذا الجو المكبوت حتى يصل الامر بالفتى ان يخلع ثيابه الدينية ويذهب خلسة مع رفاقه في الصف الى السينما .. وهكذا يتعرف « سامي » الى العالم الخارجي بطرق غير سوية .. لكن هذا العالم يروق له ، فقبل ان ينام «تذكر عيني الممثلة الزرقاوين ، وشفتيها الرمانتين .. » ص ٥٦ وما يلبث ابوه ان يعلم بذهابه الى السينما فيوبخه ويخبر ناظر المعهد ، وبذلك يحصل اول صدام بين التصرفات الطبيعية للفتى وبين محيطه الرجعي .

في تلك الاثناء يتعرف على « عزيز » الطالب الذي ينشر نتاجه في مجلة مصرية والذي يدفع « سامي » الى التضلع بالفرنسية . وكان (عزيز) هذا مقلا في الطعام محاربة لشهوته ، بعكس اخيه « عبد الكريم » الشره الشهواني ، لكن الكبت لا يرحمهما اذ يجن عبد الكريم ويمرض عزيز ثم يموت بعد ان اوحى لسامي بترجمة « مولن الكبير » .

*

حين تنتهي السنة الدراسية يصطاف سامي واسرته في قرية «المريجات»فيلتقي بسميا وهي فتاةفي مثل عمره ، يراها وهو يؤذن،ويراها حين تأتي مع اهلها لزيارة اهله « ولم يكن يتوقع ، حين طرقوا بابهم في اليوم التالي، ان ينقسموا قسمين ، فتدخل هي وامها واختها غرفة الدار حيث استقبلتهن امه واخته ، ويدخل ابوها واخوها غرفة الاستقبال » ص ٦٧ . وجملة « لم يكن يتوقع » لمسة معلم ! فالمراهق يحدس ان تجري الامور حسب الطبيعة ، وحين ينحرف المجتمع يفاجا بالعلاقات المصطنعة . وقد يعترض على ذلك بان العادة جارية على ذلك ، ولكن لهفة المراهق ومنطق العاطفة كفيلان بان يمحوا كل تصور معاكس لامنياته . وهو منذ احس بوجودها ازداد كرهه للزي الديني (وانتابه انذاك بعض الضيق ، وتساءل في قلق : ما عساها تقول عني وانا بالجبة والعمة) ص ٦٩ . ثم تتوثق العلاقة بينهما فتطل عليه كلما اذن للصلاة او توافيه الى غابةالقرية قرب الساقية ، وعبثا يحاول ان يقنعها بانه « شيخ مودرن » ص ٧٤ . لكنها تشعره ويشعره اهله بانه ليس من حد وسط ، ويزيد في ضيقه من صفته الدينية ان اخاه الاكبر «فوزي » يعثر على رسالة منه الى سميا فيعطيها لابيه ، ويصطدم الفتى مرة ثانية بمحيطه الرجعي ويتمثل الخلاف بين العقلية المحافظة عند الاب والروح الطبيعية التي تترقرق في الجيل الجديد بهذا الحوار :

« سامي : ان الله لم يخلق المشايخ بلا قلوب

الاب : ولكن الله عز وجل خلق لهم عقولا راجحة تغلب عواطفهم وشهواتهم » ص ٧٧ وفي حوار اخر يصرخ في وجه امه « دعوني وشاني فانه لا علاقة لاحدباموري الخاصة » وتجيبه امه بان « ليست امورا خاصة به ما دامت تمسهم وتؤثرهم فيهم » ص ٨٠ . وبذلك تتاكد لديه الفردية التي تلازم المفاهيم المدنية الحديثة ، ويظهر رفضه للاخلاقية الاقطاعية القديمة التي تقوم على المسؤولية الجماعية وتعتبر ان عمل الفرد يمس المجموع في اسرته . وما يلبث الضغط ان يزداد فينتصب له اخوه فوزي رقيبا يمثل المجتمع كله ، لكنه يستمر في علاقته معها حتى ينكشف امرهما في مغامرة كيشوتية يقفز فيها سامي من شرفة سميا الى الارض فيشج راسه ! ثم يترك مع اهله القرية ابان اعلان الحرب العالمية الثانية .

*

يعود سامي الى المعهد « وهو يحس وحشة كبيرة ويعيش في شبه عزلة » حتى تصله رسالة من سميا الى المعهد . فيستلمها مع توبيخ من الناظر الذي قرأها . وتستمر الرسائل عن طريق صديقه « رفيق » وتحول الجبة والعمة دون لقائهما . ويبدأ مللة يقوى من الاساتذة المشايخ وكتبهم الصفراء . « ولم يلبث طويلا حتى احس بانه ينفصل رويدا رويدا عن جو الدروس ليخلق لنفسه جوا خاصا يعيش فيه للادب والمطالعة » ص ١٠٠ . بهذه الصفحة التقريرية يبلغ البطل ذروة سامة من الحياة ، ويستشرف حياة اخرى اكثر انسجاما مع ميوله .

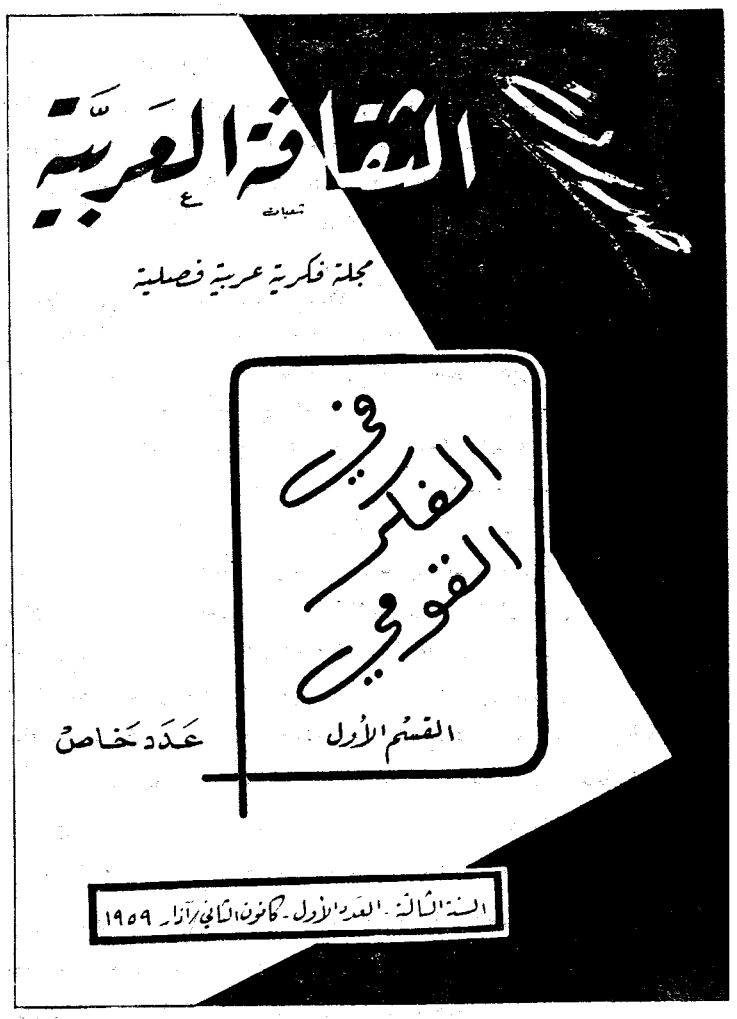

فهو ينشر قصصه في المجلة المصرية ، فتحوز اعجاب سميا التي سافرت بعد قليل الى القاهرة وقطعت رسائلها عنه . وينقضي العام كله بلا خبر وانقضى عام آخر فعزم على ان يستعد لتقديم امتحان الشهادةالثانوية تمهيدا لترك الحياة الدينية .. اي ان الكاتب ارخ لعامين بخمس صفحات .. وهذا يفقد الرواية شيئا من التوازن والانسجام بين عناصرها ويقسر ذهن القاريء وخياله على قفزات لا توضح شيئا من الحياة التي يعرضها علينا المؤلف ، ان القارىء يقع في هوة من التاريخ غير الفني لحياة مخلوق فني اسمه سامي .

لقد عزم ان يشترك في فحص الشهادة الثانوية الحكومية ، وعزم في نفس الوقت على خلع الجبة والعمة ولبس البنطال والقميص ... هكذا عزم فجاة بنتيجة ضيقة من القيود التي تستلزمها الثياب الدينية . هكذا عزم فجاة حبا في الاندماج في المجتمع وتلمس سبل النجاح ... لقد عزم ارضاء لطموحه ونزولا عند واقع الحياة .. ولم يعزم بنتيجة تمزق فكري وصراع داخلي وشك بمجموعة اعتقاداته السابقة .. وزلزال يعتري ايمانه فيتارجح روحه بين الشك واليقين واللا مبالاة ... والحلم بحياة هادئة مثالية ، والانتقال بالحلم ايضا الى حياة فاجرة داعرة تعوض ما فات شبابه المحروم .. هكذا عزم ان يتخلى عن ماضيه وشخصيته السابقة بدون تردد ولا ذبذبات من اقصى اليقين الى اقصى الالحاد ودون ان يشعر وكان هموم الدنيا كلها على كتفيه وان قلبه يعتصره الجهد والاسى والطيش واليأس .. لقد خلع الجبة والعمة ولم يفكر الا بنظرات الاستغراب والاستنكار من الجيران ! ترى الم تهجس في نفسه الوساوس عن العقاب بالنار الابدية والعذاب المخلد ، او لم يسأل نفسه عن الخلد والجنان ، او ما طاف بخاطره طيف من الندم على النعيم الذي اعده الله لعباده وتانيب لنفسه على استعجال اللذة الحاضرة ثم رجوعه الى تصميمه واهمال النتائج ؟!

المهم ان المؤلف وقف عند سطح هذه الشخصية ولم ينفذ الى داخلها.. وحين نجح سامي في الشهادة لم يبق له الا التفتيش عن الحبيب المفقود سميا . لكن خلع الثياب الدينية لم يمر في البيت بسلام ، وهنا تبدا اخته تصف لنا في مذكراتها كيف يغضب منه ابوه الشيخ ويضربه فينتقم سامي من العمة ويمزقها ... وحين يعلن سامي عزمه على الالتحاق بالجامعة ، يلجأ ابوه الى السلطة الوحيدة التي بقيت لديه : الامتناع عن دفع الاقساط ، فيسعى قريب له بتوظيفه في صحيفة يومية .. وبذلك تم تكوينه فردا من البورجوازية الصغيرة التي حصلت على شيء من الاستقلال المالي ، فتحررت نفسه من قيود البيت والمجتمع .. ويشق دربه في عالم الكتابة حتى يذيع ذات مساء احدى قصصه « وتناهى اليه صوتها ، هي سميا ، بعد ان فرغ من اذاعة قصته، حين اخبره موظف الاستديو انه مطلوب على التليفون » ص ١٢٨ . ويوافيها الى مكان الموعد فاذا بها تطل « مخلوقا جديدا لم يكد يعرفه .. كانت ترتدي ثوبا اسود عاري الكتفين والصدر ، فتبدو فيه ممشوقة الجسم ملتفة القوام . وكان شعرها مسرحا على طريقة الممثلات ، وكان يتدلى من اذنيها قرطان مذهبان كبيران ..

« اما وجهها ، فخيل اليه ان قد غاضت منه تلك النضارة التي كان يعرفها ، لتحل محلهاافانين من مستحضرات التجميل ، وكانت عيناها ، تانك العينان السوداوان العميقتان ، تطل منهما نظرات ساخرة ليس فيها اثارة من غموض نظراتها السابقة الحيية » ص ١٢٩

وبعد حوار قصير يكتشف انها تزوجت في مصر ، وهنا يتازم الموقف بينه وبينها وبينه وبين نفسه ، ويجيد الكاتب تحليل الجو العاطفي

وازدياد توتره ، حتى تخون سامي اعصابه فينسحب ويخرج الى الشارع « كالنائم يعتوره الكابوس » ص ١٣٢ . ويثور الصراع بينه وبين نفسه على شكل استيقاظات من صدمة ، فهو يتساءل : « لماذا ترك سميا على هذا الجفاء .. صحيح ان الخيبة التي حملتها اليه كانت اقسى من ان يتوقعها ، ولكن كان عليه مع ذلك الا يظهر بمظهر المطعون » ص ١٣٢ . لكي يحتفظ بكرامته.. كان يحبها طاهرة نقية « لقد هصر ذلك الجسد الان هصرا عنيفا .. » واذن فقد اهينت رجولته .. « ومرة اخرى تساءل فجأة : لماذا ترك سميا الان ؟.. وماذا كانت تبغي من لقائها به ؟ الم يكن احمق ، اذ انصرف عنها ، اما كان بوسعه ان يواعدها على لقاء خفي يحقق ذلك الحلم الذي راوده ليالي طويلة ساهدة راجفة ؟ » اي انه كان يستطيع ان يذلها ويبادلها كذبا بكذب وخيانة بخيانة ..

« واحس بقدميه تقودانه الى ساحة البرج ..

« ورقي سلما ضيقا في منعطف درب ..

« وحين هبط السلم بعد زهاء نصف ساعة لفظ حلقه بصقة كبيرة على قارعة الطريق .. » ص ١٣٣ كان هذا العمل انتقاما من صورتها في نفسه وردا لمعنى رجولته المفقودة . وقد جاء رفضه حين امكنت الفرصة منها ، رفضا طبيعيا منسجما مع ماضيه ، ولو استسلم لاول اغراء لما تعرفنا فيه بطلنا الاصلي. ان رواسب الماضي ما زالت تحكمه، وما زالت للمثل القديمة قيم عليها لها تأثير ونفوذ عليه، وهو ما زال ذلك المراهق الذي لم يتشرب الواقع فيساوم على اساس منه ، لذلك رفضها ، ثم ندم على رفضه ! لانه فقد اقتناعه العقلي بصحة هذا الرفض وسموه ، لكن عواطفه ما زالت تسوقه ـ لا شعوريا ـ لاعمال لا يريدها . وسوف يقتضيه هذا التضارب بين الاقتناع والعاطفة زمانا طويلا في « الحي اللاتيني » حتى يعيش حياة يتحقق له فيها الانسجام بين الرغبة والفعل ، حين يمتلك (جانين) التي تمثل سميا تباشير شخصيتها .

قلنا انه كان قد عزم على الاشتراك في فحص الشهادة الثانوية وانتسب الى كلية مدنية ، « وكان يمني نفسه بان يجد في تلك الدراسة متعة كان محروما منها في الدراسة الدينية الثقيلة » ص ١٣٤ . ولا يبقى له من عالمه الديني سوى صديقه « رفيق » الذي ترك الاوقاف واشتغل في متجر وتحرر هو الاخر وصار يزور سامي دائما ، وفي احدى الزيارات صعب على هدى حل مسالة فادخلها سامي الى رفيق .. وفي المساء يتشاجر مع ابيه من اجل اخته .. وبعد اسابيع يصطحبها الى السينما بدعوة من رفيق فيراهم « فوزي » ويتجدد في البيت الشجار لكن الموقف يتطور هذه المرة في صالح سامي ، اذ يهدد اباه بان يترك البيت اذا مس اخته بسوء وتأتي امه فتنسحب بابيه خارج الغرفة . على ان الاب يامر ابنته بان تنقطع عن المدرسة فيعلن سامي استعداده لتمويلها ... عند ذلك يغضب الاب ويهجر البيت مسافرا الى حلب .

اما سامي فيكتشف الحب الخجول الذي ينمو بين صديقه وشقيقته « وصارح اخته بانه يعرف حبها لرفيق ، ويقدر عاطفتها حق قدرها ، وهو لا يقف دونها ، ولكنه يريد ان تنتهي نهاية شريفة » ص ١٤٩ .

*

كتب المؤلف على لسان هدى فصلا سجل فيه انطباعاتها عن موقف الاسرة من سامي يوم خلع العمة ، وهي منذ الان تتم لنا عرض حوادث الاسرة ، ولعل في ذلك راحة للقارىء وانتقالا له من جو الى جو ، لكن الكاتب لم يدخل بنا الى نفس الفتاة ولم يعرض علينا العالم من خلال انثى، ويكاد الا يتغير علينا الا اختلاف ضمير المتكلم ، اما تلك اللمسات الخفية التي تميز ادراك الانثى للعالم وتعطيه خصوصية ذاتها ، فانها اشياء مفقودة من مذكراتها .

ـ البقية على الصفحة ٧٧ ـ

« الخندق الغميق » ومدى تعبيرها ..

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

لقد وقفت اخت البطل في « الحي اللاتيني » موقفا وسطا بين سعادة اخيها وتقاليد مجتمعها ، اما في هذه الرواية فانها تساعد اخاها وتثور معه وتقول حين صارحها باطلاعه على حبها انه « اذ ابلغني انه يقدر عاطفتي حق قدرها قد وفر علي كثيرا من الجهد والحذر والانتظار، كما انه ملاني ثقة بانني ساكون في حمايته وان بوسع حبي ان يترعرع وينمو بين جوانحي في امان » . وبذلك كشف المؤلف عن اقصى اماني الجيل : الا تقف العقبات الاجتماعية حائلة بينه وبين ميوله . كما انه كشف عن مكان المراة في هذا الصراع : انها تجني ثمرة النصر ، ولا تكونالا طرفا قلبيا في الصراع . ولعلها معذورة بعض العذر فالمجتمع اكثر تسامحا مع تمرد الرجل منه مع الانثى .

اثناء غياب الاب في حلب ياتي فوزي اخر الليل سكران وبذلك ينكشف غش الحياة التي يعيشها ، ويزور رفيق بيت سامي وينفرد بهدى فيقبلها .... وما تلبث ان تقيم حفلة « تبولة » تدعو اليها اخت رفيق ، وبذلك يكون غياب الاب فترة اعياد يحتفل بها كل على هواه . وبذلك يمثل الاب الجانب الرجعي الذي يسد منافذ الهواء ويرضى بالنفاق مع ابنه الكبير ، وفوزي يمثل المجتمع فهو نتاج تربيته ومخاض بيئته ، وهو يشابه « ياسين » في سلسلة « قصر الشوق » . وهو لذلك يحظى برضى ابيه وبركاته ما دام يقبل يده ويخفي عنه سكره وفسقه وسرقة اموال اخيه واخته !

يعود الاب من حلب فيعلن انه تزوج ! تولول الام وتبكي البنت ويغضب الاخوان ، والوالد يرد بالصفقات كل نقاش ، ولا ينهي الموقف سوى اتفاق الاخوين على تهديد ابيهم بالطرد .. فيتراجع عن موقفه ويصطحب سامي ، الى حلب ليحضر طلاق الزوجة الجديدة . وبذلك يقدم لنا المؤلف صورة واقعية عن جو البيت الشرقي والعقلية التي تسوسه ، فالام تسرد كل ماساتها لابنتها في سطور : « انني لم اطمئن لحظة واحدة الى ابيك يا هدى، بالرغم من انني قضيت معه ثلاثا وعشرين سنة .. كنت دائما اشك فيه وفي امانته الزوجية ، وارتاب في ان يستطيع الدين ان يردعه . ان نفسهخبيثة وشهوته غالبة .. ورفضت ان اتزوجه بادىء الامر ، ولكن امي اجبرتني .. » ص ١٧٢

ولا تنتهي الرواية الا برجوع فوزي الى الصراط المستقيم فيلازم البيت مساء ويرد الى اخيه ما كان قد اختلسه من ماله واعدا اياه بان يساعده في نفقات الدراسة ، وتنزعهدى الحجاب وتسفر فتصطدم بابيها ولكنها تواجهه بشجاعة فينهار مشلولا ثم يموت رمزا لموت الماضي المندثر ، ويتزوج رفيق من هدى كتتويج لنضال الجيل ، بينما يسافر سامي لاتمام دراسته كشاب من الطليعة .

هذه هي الرواية بحوادثها وابطالها ، حاول الدكتور سهيل بها ان يتمم « الحي اللاتيني » ولكن هيهات .. فما في تلك من رفيف وقلق وحركة في النفوس والعالم اشياء لايجاريها شيء في هذه الرواية . ان حذف استبطان البطل في معتقداته افقد الرواية ملامستها للوعي الانساني الحائم حول المجهول .. وسبب الخطا هو وقوع المؤلف تحت نفوذ النظريات ذات التفسير الواحد كالنظرة الفرويدية والنظرة الماركسية مع ان الحياة اغنى بعناصرها من ان تقتصر على عامل واحد . انااتخاذ الحب نقطة ارتكاز او نقطة وحيدة في تفسير انقلاب معتقدات الشاب امر خاطىء ، صحيح ان الجيل الجديد يستعجل لذاته ، لكن هذا ليس كل شيء في الحياة . ان سبب ضعف الرواية اهمال المؤلف لامرين من اهم الامور التي تلزم الاحاطة بها لكل من يحاول ان يتعرض لتسجيل التطور الاجتماعي بين جيلين . الامر الاول : تسجيل الافكار التي تقوم عليها اعتقادات كل من الجيلين لكي يتضح الفرق بين طبيعة الايمانين ، وتتضح معه العوامل التي تصوغ هذا التطور . وقد حاول الروائي نجيب محفوظ تسجيل ذلك بسرد مئات المحاورات بين ابناء الاجيال الثلاثة التي ارخ لها ، كل جيل مع جيله تارة ومع الجيل السابق او اللاحق تارات اخرى .كما انه عرض لنا صورا عن حالاته النفسية ليقربه الى مدى رؤيتنا ويؤكد هويته الانسانية .

الامر الثاني ان الكاتب قد هدف اعطاء المعلومات الكثيرة عن فترة اربع سنوات في سن حرجة فاضطره ذلك الى نهج الشكل التقريري في كثير من الاماكن وبخاصة ص ١٠٠ وص١٠٥ . ونقصان العنصر الاول افقد الرواية عمق التصوير وصحته وشحوب اللون المأساتي فيها ، اما العنصر الثاني فقد هبط بالمستوى الفني الذي كنا نرجوه من صاحب « الحي اللاتيني » .

على ان في الرواية عنصرين ناجحين تماما الاول هو الحوار وبالاخص لغته ، والثاني هو تصوير شخصية الام بحنانها وضعفها ورعايتها للجميع، فقد قالت لفوزي حين تملق اباه قبل سفره الى حلب ، بانها لم تخبر والده عن سكره وفسقه فقال لها بشراسة :

ـ ان هذه امور لا تعنيك .. وخير لك ان تعودي الى مكانك الطبيعي : المطبخ

فاجابته الام :

ـ انني لاأستنزل عليك لعنة الله كما يفعل ابوك ، ولكني ادعولك الله ان يهديك ويمحو شقاءك .

ويظهر ان الدكتور سهيل ادريس يكتب عن نفسه في هذه الرواية ، كما فعل في « الحي اللاتيني » لكنه لم يقدم لنا تجربته بالعمق الذي قدم لنا روايته السابقة .

دمشق — محيي الدين صبحي